



التأصيل الشَّرعيُّ لثقافة التعايُش لدى المسلمين وتجلِّياتُها المعاصرة

الدكتور محمد فؤاد ضاهر
باحث في الدراسات الإسلامية

المقاصد
دورية ثقافية

منذ أنْ وُجدت البشريَّةُ على هذه البسيطة والنَّاسُ يعيشون في مجتمعات تعاضدية، يجدون فيها أنفسَهم، ويبنون جسوراً من التواصل يشدُّون بها أسباب الأواصر بينهم، كي ينعموا بمزيدٍ من الحضور والتناسُل والتكامُل على ضرب الكفاح الطويل.

وما إنْ طرق سمعَ الرعيل الأوَّل خطابُ الشارع الحكيم في الحثِّ على السَّعي في الأرض والسَّير في مناكبها، ثمَّ عمارتها، والتزوُّد منها للمعاش، كما للآخرة والمعاد، في نحو قوله تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ١٥﴾ [الملك: ١٥]، حتى تأبَّط زادَه، وحمل عصا التَّرحال على عاتقه بحثاً عن أرضيَّةٍ خِصبة يزرع فيها شتلةَ التعايش، ويبذر فيها بذرة التعارف والتعاون. وهكذا هم العقلاء الأسوياء حيثما وُجدوا وأينما حلُّوا ونزلوا.

أ ـ إشكاليَّة البحث:

وحيث إنَّ الإنسانَ ـ بطبعه ـ ميَّالٌ إلى مَن يألفه ويجانسه، راغبٌ عمَّن يخالفه ولا يوافقه؛ فهل هو إذا ما حُكم بالدِّين قادرٌ على أنْ يخالف هواه وميلَه، ويتطبَّعَ بما يُرضي ربَّه، ويؤسِّسَ لحركةٍ عمرانية واجتماعية تنهض بوطنه وشعبه بما يعرف بالتعايش السلمي؟ وهل يصحُّ عقلاً وواقعاً أنْ يُطعَن في الإسلام فضلاً عن المسلمين،

ويُرمى بالإرهاب والعنف والتطرُّف لانتماء بعض الأفراد إلى منظَّمات إرهابية قد تكون نسبتُهم واحداً من مليون ونصف بالنسبة إلى أمَّة يبلغ تعدادُها أزود من مليار ونصف؟!

في بحثنا هذا تسليطٌ للضَّوء على حركة الإنسان المسلم في إقامته وظعنه، وسلوكه وخُلُقه، ونمط تفكيره وتعاليمه، لنتبيَّن طرقَ تعايشه مع بني جنسه، في أرضه ووطنه، وإقليمه ومحيطه، والعالَم بأسره.

ولننظر تالياً إذا ما كانت نُظُمه ومبادئه تتغيَّر وتتبدَّل تحت مِطرقة الأحوال والظروف، أم أنَّها مِن قبيل أصول الأخلاق وقواعد الأحكام التي لا يجري عليها تعديل أو تحوير.

وهل يصحُّ أنْ نُدخِلَ ثقافة التعايُش ضمنَ تعليم الكُلِّيَّات ونعدَّها مِن مقاصد الشريعة الغرَّاء؟

ب ـ أسباب اختيار البحث:

دعا إلى إعداد هذا البحث الشُّعورُ بالمسؤوليَّة الشَّرعيَّة والواجب الوطنيِّ، الذي يفرضه بلدٌ كلبنانَ، كأنموذجٍ حضاريٍّ لوطنٍ مُتعدِّد الطوائف، في سبيل دفع غائلة الفرقة والانقسام، والتَّخفيف مِن حِدَّة الطائفية والمذهبية، والوقوف في وجه نار الفتنة المستعرة التي أكلت الأخضر واليابس في غير ما بلدٍ، رجاءَ عدم العودة إلى تاريخ ماضٍ مليءٍ بالأحداث الأليمة والدَّامية، التي لا زالت أعدادٌ من البيوتات اللُّبنانيَّة تئنُّ على صداها، وتتألَّم مِن جراحاتها، مقابل الاندماج بمشروع الدَّولة العادلة والقويَّة بأبنائها مجتمعين ومتآلفين، على حدِّ تعبير العلامة السيد علي الأمين في قالته الرائدة: «لن تحمِيَنا مذاهبُنا ولا طوائفُنا ولا أحزابُنا ولا جماعاتُنا؛ بل الانصهارُ الوطنيُّ والدَّولةُ العادلة»[1].

(١) الأمين، السيد علي، موقعه على الشبكة العنكبوتية.
https://www.al-amine.org/

ولإثبات أنَّ الدِّينَ مَعلَمٌ حضاريٌّ ومحضن تربويٌّ، نعمت الشُّعوبُ في ظِلِّه، ونمت الخيرات في حُكمه، وأمنت الأرواح والأعراض والممتلكات بوسطيَّته وعدله.

فضلاً عن الحاجة العِلميَّة الدَّاعية إلى تأصيل ثقافة التعايُش وتأطيرها بالإطار الدِّينيِّ، والبحث لها عن مُوجِبات شرعيَّة، استناداً إلى الأصول التَّشرعيَّة والقواعد الفِقهيَّة، كأيِّ أطروحةٍ معاصرة يعوزها التَّقعيد الأصولي، لضمان انتمائها إلى المنظومة الأخلاقيَّة الإسلاميَّة، ألَّا تبقى مجرَّد حديث سياسيٍّ، أو ظاهرة اجتماعيَّة، أو نظريَّة فلسفية. ثمَّ الارتقاء بها إلى مصافِّ الكُلِّيَّات الشَّرعيَّة والمقاصد التَّشريعيَّة، كي تمسي بدورها قاعدةً أصوليَّةً ودليلاً كلِّيّاً، تنظم حركةَ المسلم وتصرُّفاتِه في العالَم بأسرِه، وتندرج تحتَها قواعدُ فرعيَّة، وتُخرَّج عليها أحكامٌ تفصيليَّة جزئيَّة.

وقد أسميتُه: «**التأصيل الشَّرعيُّ لثقافة التعايُش لدى المسلمين وتجلِّياتُها المعاصرة**».

والتعايش عَلاقة تفاعُليَّة بين فئات مختلفة، على أساس من التفاهم وتبادل المصالح في ظل جوٍّ من الاحترام والاعتراف بالآخر لضمان الأمن والاستقرار.

ويتعارض مفهوم التعايش مع مبدأ التسلُّط والأحادية والقهر والعنف. ولا يلزم منه تنازلٌ عن ثوابت المبادئ للمتعايشين؛ بل تأكيد الحقِّ في تمسُّك الكلِّ بقناعاته ومعتقداته، وممارسة خياراته السياسية وتوجُّهاته المجتمعية، كمواطنين متساويين في حقوقهم وواجباتهم، متعاونين لتحقيق المصلحة العامة.

الكلمات الدلالية المفتاحية ذات الصلة:

الحوار ـ التعارف ـ المواطنة ـ التسامح.

المبحث الأوَّل

مُوجِبات التعايُش وتحدِّياته

المطلب الأوَّل

مُوجِبات التعايُش

إنَّ حاجةَ النَّاس إلى إيجاد التعايُش بينهم ـ كثقافةٍ مُجتمعيَّة ونَمَطِ سلوكٍ ـ أشدُّ مِن حاجتهم إلى الهواء والكلأ والماء؛ لأنَّه شَرْطٌ في التنعُّم بذلك كلِّه، وبانعدامه تنعدم أسبابُ الحياة. فهو يمشي معَ حركة الإنسان في الكون طرداً وعكساً. وعلى قَدْرِ ما يتمتَّعُ الإنسانُ من ثقافة الحياة وما تحمله من واجبات ومستحقَّات؛ بقَدْر ما يقرُب مِن مفهوم التعايُش كرحمةٍ ونعمة. وبقَدْر ما يغلب على المرء من صناعة الموت، ونزعة الأنا والأحادية، والشُّعور بالفوقية، وازدراء الآخر والتَّعالي عليه؛ على قَدْر ما يفقد من قيمه ومبادئه ومُثُله العليا، بقدر ما يستجلب من حروب ودمار وتفتُّت وانقسام. واتْلُ في ضوء هذا الملحظ قولَ الله تَعَالَى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾ [قريش: ٣ ـ ٤].

تأسيساً على هذه الضرورة، يجد المسلمُ نفسَه مسؤولاً أمام ربِّه ومجتمعه ووطنه عن المحافظة على الكلِّيَّات المتعارف عليها لدى الأصوليين، انطلاقاً من الشُّعور بالحرص على خاصيَّة الإنسان وذاتيَّة الأوطان، لعمارة الكون والاستبقاء على المهج والأرواح، والمحافظة على الأعراض والأموال.

فتراه في تعايُشه ـ مع غيره والآخرِ ـ صادقاً معَ نفسه، متصالحاً مع ذاته، منسجماً مع الفطرة البشرية، ومتناغماً مع النزعة الإنسانية التي يأنس فيها كإنسان بأخيه الإنسان، ويتلمَّس في هذا الإحساس حاجتَه إليه، وعدمَ الاستغناء عنه. ويزداد هذا الشُّعورُ ويقوى كلَّما ترقَّى في سلَّم المعارف الربَّانية، وارتشف مِن معين الكمالات الإلٰهيَّة، وغاص في أسرار الشَّريعة الإسلامية. لذلك يصحُّ القولُ: المسلمُ أكثرُ من يمكنه أن يتعايش في المجتمعات التي يتواجد فيها، ويعود السبب في ذلك إلى تربيته الإسلامية.

ويرى المسلمُ في التعايُش وجهاً دعويّاً، يفيد منه في الدَّعوة إلى الله، ونشر معالم الإسلام الحضارية، وتبصير النَّاس بالخير والهدى والنور. فهو يوفِّر للمسلم بيئةً خِصبة للدعوة والتعليم والتوجيه والإرشاد، وتطبيق الأخلاق، وحسن الجوار، ونجدة الملهوف، وبذل المعروف. وإلا تعطَّل إجراءُ الأحكام الفقهية الشاملة للمسلم وغير المسلم، وكانت مجرَّد عبث أو ترف فكري لا واقع لها في الخارج!

ثمَّ إنَّ من نافلة القول الإشارةَ إلى موجب آخر لتفعيل ثقافة التعايش واللجوء إليها، ألا وهو قيامُ عدوٍّ مشترَك يستلزم تضافر الجهود وتكاتفها، ثمَّ توزيع الأدوار على مُختلِف الشَّرائح المجتمعيَّة والمكوِّنات الوطنية، للقضاء عليه، أو إبعاده وتأخيره، أو إيجاد تفاهم يكفُل استمرار الحياة بأكثرِ المحامد وأقلِّ الخسائر، على قاعدة أنَّ التصرُّف بالرعيَّة مَنوطٌ بجلب المصلحة وتكثيرها، ودرء المفسدة وتقليلها. قال الله تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠﴾ [الحج: ٤٠].

المطلب الثَّاني

تحدِّيات تواجه التعايُش

شهدت الجاهلية الأولى ـ في ظلِّ عدم إيمانهم بسياسة العيش المشترك ـ حروباً ضارية، فكانت القبائل العربية تغير على بعضها، وتنزو القوية منها على المستضعفة! حتى عُرف من أيام العرب حرب البسوس وحرب داحس والغبراء التي امتدت لعقود من الزمن. فماذا كانت النتيجة سوى الخراب والدمار والتخلُّف؟!

وككل منظومة إنسانية يتهدَّد عناصرَها تحدِّياتٌ من شأنها أنْ تفتك بعضدها وتأتي عليها من جذورها وتستبيح بيضتها وتهلك الحرث والنسل. أو تنقلب أسباباً رحيمة تشد من أزرها، وتقوي ساعدها، شريطةَ أن يتنبَّه إليها

المصلحون والموجهون والدعاة المخلصون، فيسددوا ويقاربوا، ويصلحوا مواطن الضعف والخلل، وينشِّطوا مواضع القوة والاتحاد، ويتجاوزوا مكامن الاختلاف إلى قواسم الالتقاء للارتقاء.

وإنَّ ممَّا يؤرِّق الوحدة الوطنية أو القومية أو الأممية، هو الاختلاف الدِّينيُّ ببعده الأيديولوجي ذي العصبية الطائفية أو المذهبية المغالية غير المتسامحة أو المتعاونة أو المتعايشة، فيلجأ بعض المغالين إلى النصوص المتشابهة، فيحملونها على ظواهر معانيها، ويسلخونها عن مناسباتها وسياقها حتى تنقلب على مقاصدها وجوهر معانيها! في الوقت الذي يؤكد فيه الإصلاحيون أنَّ «علاقة المذاهب والأديان لا تكون على حساب الأوطان»، في إلماحة تأثيلية إلى قضية أصولية توصِّف «المذاهب على أنَّها ليست قدراً لا يمكن تجاوزُه»[1].

ومن خلال التأمُّل في وقائع التاريخ القديم ومجريات الأحداث المعاصرة، نتساءل: هل الصِّراعُ بين السُّنَّةِ والشِّيعة أجدى نفعاً؟ وهل الاقتتال بين المسلمين والمسيحيين يدخل الجنَّة؟ ثم هل القطيعةُ بين الأشقَّاء العرب تدرُّ خيراً؟ ليت شعري! أنَّى للأوطان أن تُبنى تحت نير الانقسام ونار الفتنة والتفرقة؟! هذا كلُّه عبث بالعقول، وتزييف لحقائق الإيمان، وتخريب للبلدان، وتضييع للجهود، وانشغال بتوهُّمات وتكهُّنات.

كذلك تشكِّل الطائفية السياسية انقساماً حادّاً بين أبناء الوطن الواحد، وتورث لديهم اصطفافات من نوع العصبية الدينية والسياسية، التي لا تُطمئن، ولا تعود بالخير، ولا ترعى الصالح العام؛ بل غايتها تحقيق مآربهم وحاجياتهم، في غفلة خطرة عن نتائج ذلك ومآلاته غير المسؤولة، وفي محادَّة صارخة لروح القانون الذي يُعامِلُ أبناءه جميعَهم على حدٍّ سواء لجهة الحقوق والواجبات.

ويقوِّي ذلك ابتناء أحزاب سياسية تتعاطى الشأن العام على أُسُسٍ

---

(١) الأمين، السيد علي، موقعه على الشبكة العنكبوتية.
https://www.al-amine.org/

أيديولوجية، لا تؤمن بالتعدُّدية، أو المشاركة في الحياة الاجتماعية والسياسية وسواها؛ بل تُعامِلُ الآخرَ على قاعدة: «مَن ليس معنا فهو علينا»! ممَّا يزيد من الشرخ في المجتمع، ويورث العداوة والبغضاء.

هذا، ولا يمكننا أن نغفل العجلة والارتجال، والطيش وقلة الخبرة والدراية، وانعدام الشفقة والرحمة، كمعاول هدم ودمار في جسم الإنسانيَّة، تحول دون تعميم ثقافة التعايش، وإرساء دعائم التعاون والتقدُّم والازدهار، في مخالفة صريحة لمنطوق قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ١٥٩﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

فضلاً عن الانفراد بالرأي ومصادرة الحق والصواب، وإصدار الأحكام الهوجاء بغوغائية وتعميم، وعدم الاستماع إلى الآخر، ومحاولة فرض وجهة النظر وتقديمها كأنها هي الحل الأمثل، أو الخيار الأقوم، فتعلو الأبصارَ غشاوةٌ، ويضعف الإنصاتُ إلى الآخر، حتى تذهب القوة وتتلاشى، وتضيع الجهود سدًى، ولا يكون باليد حولٌ ولا قوَّة.

وممَّا يزيد الطِّينَ بِلَّةً قيامُ العنصريَّة والعائلية والعشائرية مرجعيَّاتٍ فاصلةً، أو قوانينَ حاكمةً، ممَّا يُعَدُّ تحدِّياً مباشراً لثقافة العيش المشترك. والذي ينقلب بنفسه على السلوكيات الأخلاقية، ويحدُّ من تحكيم الوصايا الدينية، فيطال السلم الأهلي، ويشكِّل نذير شؤم.

المطلب الثَّالث

السُّبُل المثلى لتحقيق التعايُش

تنتهض المحافظة على الضروريَّات الكلِّيَّة عن طريق مسلكين اثنين يأخذان بيد بعضهما، ليوفِّرا بقاءها ووجودها.

المسلك الأوَّل: من جهة العدم؛ بملاحظة ما يخلُّ بهذه الضروريات، فيعمل على تلافيه وتحاشيه. فحظرت جميع أنواع الظلم والتعدي والغدر

والخيانة، ومنعت الجريمة بشتى صورها، وعلى سبيل المثال قَالَ تَعَالَى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۚ﴾ [المائدة: ٣٢].

المسلك الثَّاني: من جهة الوجود، بالعمل على ما يقويها وينمِّيها ويزيدها حضوراً وتمكيناً وانتشاراً. فأمرت الشريعة بالعدل والوسطية، وحضَّت على البرِّ والتقوى، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٨﴾ [المائدة: ٨]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٢﴾ [المائدة: ٢].

والبرُّ عنوان جامع لأيِّ عملٍ من أعمال الخير. والمسلم مطلوب إليه أن يسوقه إلى غيره بغضِّ النَّظَر عن جنسيته أو عرقه أو دينه. والعدل لا يتحقَّق بالجريمة؛ بل بالتعاون على البرِّ والتقوى. لذلك وجب لدى العقلاء التفريقُ بين الجريمة والدِّين، لناحية أنَّ الدِّينَ أبداً لا يدعو إلى الجريمة؛ بل يدعو إلى دفعها وتقليلها والقضاء عليها ويعاقب عليها.

ولمَّا كان الأمرُ بالشَّيء أمراً بوسائله ولوازمه وبما لا يتمُّ إلا به، ونهياً عن ضدِّه وما ينقلب عليه؛ كان حِفْظُ الأمن، وبناءُ الإنسان، وعمارةُ الأوطان متوقِّفاً على بثِّ روح التعاوُن والتضامُن ونشر ثقافة التعايش ورعايتها.

بناءً عليه، نرى أنَّ كِلَا المسلكين قائمان على جانبين متكاملين لا غنًى لأحدهما عن الآخر، هما:

الجانب التنظيري؛ المتمثِّل بفهم الدِّين فهماً صحيحاً متوافقاً مع نصوص الوحيين، ومتطابقاً مع السيرة النبوية، ومنسجماً مع فهم الرعيل الأول المُتنزَّلِ عليهم قولُه تَعَالَى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝١١٥﴾ [النساء: ١١٥]، وآخِذاً بتشريع الأنظمة والقوانين الضابطة لهذه القضية، والمسايرة أبداً لحركة

الإنسان في الكون، وإقامة الندوات العلمية ذات الأهداف الوعظية والدعوية والتعليمية، بالأساليب البرهانية والخطابية، للتوعية والتثقيف على هذه المعاني، بما يضمن التجديد والتفاعل مع كلِّ طارئٍ ومُستجِدٍ وحديث.

والجانب الإجرائي؛ المنطلق من ثقافة التعارف، الموصلة إلى التنسيق والتشاور، والالتقاء والتزاور بين المرجعيات الروحية والسياسية والحزبية، بغيةَ العمل والتعاون. والعودة إلى التباحث والتحاور، لفض النزاعات، وتذليل العقبات، وحلِّ الخلافات، وتسوية المشكلات، وتقديم تنازلات متبادَلة مِن قِبَلِ الجميع، تحقيقاً للتقارب والتراحم، على أساس الإحسان إلى الخَلْقِ بالخُلُقِ، توطيداً للاستقرار وتنميةً للمجتمع.

ويتحقَّق التعايش أيضاً بتقديم الخدمات الإنمائية، وتسهيل المستحقَّات المعيشية، وتوفير الاحتياجات الصِّحِّيَّة والتعليمية وغيرها للناس كافَّةً، بمنأى عن المحسوبية، أو الواسطة والمعارف، أو المحاصصة. استناداً إلى معاملة الجميع كأبناء مجتمع واحد، يؤمنون برسالة الوطن، ويستفيدون من تعاليمهم الدينية وتجاربهم التاريخية بما يكفل حياة آمنة وسعيدة للجميع.

ويتساوى في هذا الواجب المسلمُ مع غيره، فرداً كان أو هيئة أو لجنة أو جماعة، مسؤولاً سياسيّاً أو أمنيّاً أو مدنيّاً... لذلك على الأحزاب والهيئات والجهات والجماعات والجمعيات والحركات والتيارات والكتل النيابية - بوجهيها المسلم وغير المسلم - أن تستجيب لحاجيات الوطن والمواطن، وتعمل على طمأنته، وبثِّ الثقة في نفسِه سيَّما بوجود أجواء ملبَّدة تحت تأثير الطائفية السياسية والمحاصصة والمحسوبية.

من هنا تأتي التوعية على ثقافة التعايش، واحترام الآخر، والاعتراف بوجوده وحضوره، وأنه مُكوِّنٌ شريك في المجتمع والوطن والعالم؛ حلّاً ناجعاً لتحقيق الثوابت الوطنية، والمحافظة على السلم الأهلي، وتغليب جانب الحوار والتفاهم بالتي هي أحسن للتي هي أقوم، على لغة العنف والإرهاب والاضطهاد، بمعزل عن أيِّ عمل يتسبَّب بالاستفزاز المفضي إلى العراك فالاقتتال.

لذلك؛ فالعقلاء بكلِّ طوائفهم وأطيافهم وأحزابهم وانتماءاتهم، مدعوون إلى مصالحةٍ حقيقيَّةٍ وعاجلة ترتسم بينَ جهاتٍ ثلاث: بين العرب أنفسهم، ثم بين المسلمين أنفسهم، ثم بين العرب والمسلمين، متجاوزين لخلافات قد مضى عليها الزمن.

المبحث الثَّاني

القواعد الشَّواهد لثقافة التعايُش

توطئة:

كثيرةٌ هي الشَّواهد الأصوليَّة النَّاظِمَة لأصول التعايُش والدَّالَّة عليه كمبدأ دينيٍّ وواجبٍ وطنيٍّ وخُلق إنسانيٍّ. وكلُّها تأخذ بيد بعضها البعض لتُثبِت للمسلم المكلَّف والرَّأي العام تجذُّرَ هذا المفهوم في المنظومة الإسلامية الفقهية والأخلاقية؛ التنظيرية والتطبيقية، بله العقدية والإيمانية، وأنَّه ليس دخيلاً عليها، أو أجنبياً عنها، فضلاً عن أن تكون بمنأى عنه لا تؤمن به ولا تحتكم إليه، دون لَيِّ أعناق النُّصوص أو محاولة تحميلها ما لا تحتمل.

وإذا ما علمنا أنَّ الحُكمَ الشَّرعيَّ هو خطابُ الله المتعلِّق بأفعال المكلَّفين؛ اقتضاءً أو تخييراً أو وضعاً. وأنَّ الخطابَ الإلهيَّ ليس نُصوصاً فحسب؛ بل فيه مِن السعة والمرونة ما يشتملُ على روح النَّصِّ وآفاقه وأبعاده تنزيلاً وتطبيقاً، ويقوم على مواكبة عجلة الحياة، ومسايرة النَّاس في معاشهم وأخراهم؛ أدركنا عندئذٍ أهميَّة الاستدلال بشموليَّة الخطاب؛ نصّاً ومضموناً، مُزوَّداً بتفسيراته الإجرائية وشروحاته التطبيقية من السيرة النَّبويَّة العَطِرَة، وعمل الخلفاء الراشدين والأمَّة مجتمعين.

وحيث إنَّ القانون الإسلاميَّ لا ينفكُّ طَرْفَةَ عينٍ عن ملاحظة البُعد الخُلُقيِّ في التَّشريع؛ بل يحاول دوماً تفعيلَ دورِ القِيَم لِمَا تُمثِّله مِن قوَّة رادعة للنَّفس البشرية عن ارتكاب الرذيلة، ومهارةٍ دافعة للتحلِّي بالفضيلة؛ ندرك حينئذٍ ما يعنيه تعايُش المسلم حيالَ غيره، وعوائد ذلك مِن جودٍ في الإحسان، وحُسْنِ معاشرة للإنسان، ابتغاء مكارم الأخلاق ومحاسن الأفعال، وهو يتمثَّل

قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠﴾ [النحل: ٩٠]، وقول نبيِّه ﷺ: «**إنَّما بُعثت لأُتمِّم مكارم (وفي رواية: صالحَ) الأخلاق**»[(١)].

المطلب الأوَّل

النُّصوص الشَّرعيَّة النَّاظِمة لأصول التعايُش

أ ـ القرآن الكريم:

علاقة المسلم بغيره من الناحية العقائدية تنظمها سورة الكافرون سيما في قوله تعالى: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون: ٦]. أمَّا علاقته به من النَّاحية الاجتماعية والحياة اليومية فينظمها قوله تعالى: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٩﴾ [الممتحنة: ٨ ـ ٩].

تفريعاً عليه، «امتاز الإسلام برعاية الإنسانية، فبسط الله تعالى به روح الانتماء بين البشر»[(٢)]، ونصَّ على أنَّ إحدى غايات الخلق المتنوع هو التعارف والتلاقي والتفاهم، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ۝١٣﴾ [الحجرات: ١٣]. «وفي تذكيرهم بوحدة أصلهم تهيئة نفسية وتيسير لسبيل

---

(١) أحمد بن حنبل الشيباني (ت٢٤١هـ)، **المسند**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ـ عادل مرشد وآخرين، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م، (٤٥ج) (١٤/ ٥١٢ ـ ٥١٣)، رقم (٨٩٥٢). البخاري، محمد بن إسماعيل (ت٢٥٦هـ)، **الأدب المفرد**، تحقيق: سمير بن أمين الزهيري، الرياض، مكتبة المعارف، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، باب حسن الخلق (ص١٤٣)، رقم (٢٧٣). وينظر: الألباني، محمد ناصر الدين (ت١٤٢٠هـ)، **سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها**، الرياض، مكتبة المعارف، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، (٧ج)، (١/ ١١٢)، رقم (٤٥).

(٢) شوقي، محمد، **مفهوم التعايش السلمي بين المجتمعات**، مقالة، على الشبكة العنكبوتية:
http://www.irtikaa.com/learning/2023-
مفهوم ـ التعايش ـ السلمي ـ بين ـ المجتمعات.

التقارب، وانتزاع الشعور بالعداء، أو بالتميز الذاتي»[1].

ثمَّ انطلق في تقرير عَلاقة المسلمين بغيرهم من خلال تقرير حقوق الإنسان باعتباره إنساناً، وهذا الحق شامل لعامة الناس مسلمهم وكافرهم، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠﴾ [الإسراء: ٧٠].

وبنيت هذه العلاقة على قيم العدل والإحسان بالرغم من عدم إقرار العالم لهذه القيم إلا بعد قرون طويلة، فأوجب المعاملةَ الحَسَنَة، وكَفَّ اليد عن الغير، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝٥٨﴾ [النساء: ٥٨].

وأباح القرآنُ الكريم التَّعامُل مع غير المسلمين، سواء في المعاملات التِّجارية بآدابها العامَّة، لناحية الوفاء بالعهود ومضامين العقود، وعدم الغش والرِّبا ونحو ذلك. أو في الأحوال الشخصية، والالتزام نحوهم بواجب الاحترام وغير ذلك. فأجاز الأكلَ مِن ذبائحم، ومصاهرتهم بالتزوُّج مِن نسائهم، والإحسان إليهنَّ وحُسن صحبتهن بعموم النَّصِّ القائل: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ۖ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝٥﴾ [المائدة: ٥].

كما أرشد إلى بناء العَلاقات الاجتماعية وتشييد صرحها بمنتهى الود والتعاون والشفافية، وحرَّم الغدر والخيانة كما هو الشأن في تعامل المسلم مع المسلم بالعدل والمساواة، وأوجب ترسيخ دعائم الأمن المفضية إلى التنسيق في ما بينهم، وضمان عدم الحيف والظلم والاضطهاد كما في آيتي «سورة الممتحنة».

(١) القضماني، د. محمد ياسر، **التعايش مع غير المسلمين وضوابطه العشرة**، مقالة، على الشبكة العنكبوتية:
https://www.naseemalsham.com/ar/Pages.php?page=book&pg_id=3846&back=2717

فواضح بجلاء عدم قيام اختلاف الدِّين حاجزاً في بناء العَلاقات بين الناس والإحسان إلى بعضهم البعض، والالتقاء على القواسم المشتركة. كيف؟ وهم سواء في الخلق والإيجاد والإمداد وأصل التكوين والانتماء، وإنَّما جُعل التفاضل على أساس التقوى كاختبار أخرويٍّ لا يمنع من صفو النفس وحملها على جبر خواطر الناس.

بل ذهب إلى أبعدَ مِن ذلك، حين وجَّه المسلمَ إلى قَبول جوار مَن هو على حرب معه إنْ هو استجاره، وأنْ يعلِّمَه شرعَ الله، ويدعُوَه إلى الخير والرَّشاد، ثمَّ يوصلَه إلى برِّ الأمان دون أدنى ظلم أو فساد، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾ [التوبة: ٦].

واللافت في بعض القرآن تنزُّله بسبب غير المسلمين من أهل الكتاب والمشركين، لناحية برِّهم والإحسان إليهم، فعن ابن عبَّاس قال: «كَانُوا يَكْرَهُونَ أَنْ يَرْضَخُوا لأَنْسَابِهِمْ، وَهُمْ مُشْرِكُونَ، فَنَزَلَتْ ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾، حَتَّى بَلَغَ ﴿لَا تُظْلَمُونَ ۝٢٧٢﴾ [البقرة: ٢٧٢]، قَالَ: فَرَخَّصَ لَهُمْ»[1]. وقال رسول الله ﷺ: «**تَصدَّقُوا عَلَى أَهْلِ الأَدْيَانِ**»[2].

ب ـ السُّنَّة النَّبويَّة:

حضَّت السُّنَّة النَّبويَّة على حُسْن المعاشرة ولين الجانب والتقرُّب من الناس والإحسان إليهم، قال رسولُ الله ﷺ: «**المُؤْمِنُ يَأْلَفُ وَيُؤْلَفُ، ولا خَيْرَ**

(١) الطبراني، أبو القاسم: سليمان بن أحمد (ت٣٦٠هـ)، **المعجم الكبير**، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، القاهرة، مكتبة ابن تيمية، ط٢، (٢٥ج)، (١٢/ ٥٤)، رقم (١٢٤٥٣). الحاكم، أبو عبد الله: محمد بن عبد الله (ت٤٠٥هـ)، المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م، (٤ج) (٢/ ٣١٣)، رقم (٣١٢٨)، عن ابن عباس. وصحَّحه الحاكم، والذهبيُّ على شرط الشيخين. وفي الباب مراسيل كثيرة تقوِّي بعضُها بعضًا.

(٢) ابن أبي شيبة، أبو بكر: عبد الله بن محمد العبسي (ت٢٣٥هـ)، **المصنَّف في الأحاديث والآثار**، تقديم وضبط: كمال يوسف الحوت، بيروت، دار التاج، (١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م)، (٧ج)، (٢/ ٤٠١)، رقم (١٠٣٩٨). وينظر: الألباني، الصحيحة، (٦/ ٦٢٨)، رقم (٢٧٦٦).

فِيمَنْ لا يَأْلَفُ ولا يُؤْلَفُ. وخَيْرُ النَّاسِ أَنْفَعُهُم للنَّاسِ»[١].

وأمرت بأداء الأمانة والوفاء بالعهد وحفظ حقوق الناس، دون تمييز على أساس الدين أو العرق أو مطلق انتماء، فقال النبيُّ ﷺ: **«أَدِّ الأَمَانَةَ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ، وَلا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ»**[٢].

وفي توصيف المؤمن والمسلم والمغايرة بينهما على أساس حُسْن التعامُل، وصِدْق المقصد، وخِدمَة الناس والمجتمع، قال رسول الله ﷺ: **«أَلا أُخْبِرُكُم بِالْمُؤْمِنِ؟ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ. وَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ. وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللهِ. وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ»**[٣].

فأنت ترى أنَّ النبيَّ ﷺ قد «فسَّر المسلمَ بأمر ظاهر، وهو سلامة النَّاس منه، وفسَّر المؤمنَ بأمر باطن، وهو أن يأمنوه على دمائهم وأموالهم. وهذه الصفة أعلى من تلك؛ فإنَّ من كان مأموناً سلم الناس منه، وليس كلُّ مَن سلموا منه يكون مأموناً؛ فقد يترك أذاهم وهم لا يأمنون إليه، خوفاً أن يكون ترك أذاهم لرغبة ورهبة؛ لا لإيمان في قلبه»[٤].

وهكذا يُفرِّقُ بين المؤمن والمنافق؛ لأنَّ «الإيمان الصحيح يحمل صاحبَه

(١) الطبراني، **المعجم الأوسط**، تحقيق: طارق بن عوض الله ـ عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، القاهرة، دار الحرمين، (١٤١٥هـ)، (١٠ج)، (٦/ ٥٨)، رقم (٥٧٨٧).

(٢) أبو داود: سليمان بن الأشعث السِّجِسْتاني (ت٢٧٥هـ)، **السنن**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، صيدا ـ بيروت، المكتبة العصرية، (٤ج)، كتاب البيوع، أبواب الإجارة، باب في الرجل يأخذ حقَّه من تحت يده، (٣/ ٢٩٠)، رقم (٣٥٣٥). الترمذي، أبو عيسى: محمد بن عيسى (ت٢٧٩هـ)، **السنن**، تحقيق وتعليق: أحمد شاكر وآخرين، مصر، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط٢، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م، (٥ج)، كتاب البيوع، باب، (٣/ ٥٥٦)، رقم (١٢٦٤)، عن أبي هريرة. وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

(٣) أحمد، **المسند**، (٣٩/ ٣٨١)، رقم (٢٣٩٥٨)، عن فضالة بن عبيد. وينظر: الألباني، الصحيحة، (٢/ ٨٩)، رقم (٥٤٩).

(٤) ابن تيمية، تقي الدين، أبو العباس: أحمد بن عبد الحليم (ت٧٢٨هـ)، الإيمان، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، عَمَّان، المكتب الإسلامي، ط٥، (١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م) (ص٢٠٧).

على رعاية الأمانة، وينهاه عن الخيانة، حتى يطمئِنَّ إليه النَّاسُ، ويأمنوه على أنفس الأشياء عندهم، وهي الدماء، والأموال»[١].

وقال ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَبْدٌ لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ»**[٢]؛ أي: شروره وغوائله.

وجه الدلالة من تيك النُّصوص مجيء اللَّفظ فيها عامّاً، فشملت المسلم وغير المسلم على حدٍّ سواء. بمعنى أنَّ المسلمَ كما هو مأمور بحسن معاشرة المسلمين، فهو كذلك مأمور بالخطاب ذاته بحسن معاشرة غير المسلمين ما لم يكونوا معتدين.

وهذا يدلُّ على أنَّ لا انفكاك بين التشريع الفقهي والتشريع الخُلُقي في الشريعة الإسلامية؛ باعتبار أنَّ الكلَّ وحيٌ من لدن حكيم خبير. ممَّا يلفت إلى أنَّ المسلم حين يطبِّقُ مفهوم التعايُش واقعاً في مجتمعه ووطنه والعالَم من حوله، ثم يدعو إليه وينادي به؛ فإنَّه بذلك ينطلق مِن إيمانه الرَّاسخ في قلبه والذي انعكس على أفعاله وتصرُّفاته، ابتغاءَ وجه ربِّه والدار الآخرة، وليس هو مِن قَبيل التزلُّف والمراءاة.

من هنا ندرك حسن صنيع العلماء حين خرَّجوا هذه الآثار النَّبويَّة في كتب العقيدة[٣]، ....

(١) السَّعدي، أبو عبد الله: عبد الرحمٰن بن ناصر (ت١٣٧٦هـ)، **التوضيح والبيان لشجرة الإيمان**، اعتنى به: أشرف بن عبد المقصود، الرياض، أضواء السلف، ط١، (١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م) (ص٣٤).

(٢) أحمد، **المسند**، (٢٠/ ٢٩)، رقم (١٢٥٦١). الحاكم، **المستدرك**، (١/ ٥٤ ـ ٥٥)، رقم (٢٦)، عن أنس بن مالك. وصحَّحه الحاكم على شرط مسلم، وأقرَّه الذهبيُّ. وينظر: الألباني، الصحيح، (١/ ٧٨٧)، رقم (٤٢٦).

(٣) كما هو الشأن لدى الإمام ابن منده، أبي عبد الله: محمد بن إسحاق (ت٣٩٥هـ) في كتاب الإيمان، تحقيق: د. علي بن محمد بن ناصر الفقيهي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٢، (١٤٠٦هـ)، (٢ج)، (١/ ٤٥٢)، رقم (٣١٥). والحافظ البيهقي، أبي بكر: أحمد بن الحسين (ت٤٥٨هـ)، في شعب الإيمان، تحقيق: د. عبد العلي عبد الحميد حامد، الرياض ـ بومباي الهند، مكتبة الرشد ـ الدار السلفية، ط١، (١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م)، (١٤ج)، (١٣/ ٤٥٤ ـ ٤٥٥)، رقم (١٠٦١١). والإمام اللالكائي، أبي القاسم: هبة الله بن الحسن (ت٤١٨هـ)، =

ومصنَّفات الأخلاق[١]. في إلماحة هامَّة إلى ضرورة التلازم بين الرواية والدراية والرعاية في سير المسلم إلى الله، وتعايشه مع أفراد مجتمعه.

المطلب الثَّاني

صور مشرقة من ثقافة التعايش في عهد النبيِّ ﷺ وعصر الخلافة الرَّاشدة

أوَّلاً: السِّيرة النَّبويَّة العطرة:

غيرُ خافٍ صِدْقُ النَّبيِّ ﷺ وأمانتُه قَبْلَ البِعثة ـ وبعدَها من بابٍ أولى ـ وكيف كان يحرص على النَّاسِ وممتلكاتهم، حتى استودعوه أماناتهم. ثمَّ ما لاقاه مِن أذى قريشٍ والقبائل العربية في مكَّة والطائف وغيرهما، وما كابده من كيد اليهود وضرر المنافقين في المدينة. ومع هذا وذاك كان نِعْمَ المتسامح

= **في شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة**، تحقيق: أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي، السعودية، دار طيبة، ط٨، (١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م)، (٩ج)، (٥/٩٩٧)، رقم (١٦٧٢).

وجعل الإمام المَرْوَزِيُّ التعايش على حقيقته وشموليته عنوانًا صادقًا دالاًّ على **كمال إيمان صاحبه**، في كتابه عن أعظم ركن بعد التوحيد ألا وهو الصلاة، فينظر: المَرْوَزِي، أبو عبد الله: محمد بن نصر (ت٢٩٤هـ)، **تعظيم قدر الصلاة**، تحقيق: د. عبد الرحمٰن عبد الجبار الفريوائي، المدينة المنورة، مكتبة الدار، ط١، (١٤٠٦هـ)، (٢ج)، (٢/٥٩٩)، رقم (٦٣٧).

(١) كما هو الشأن لدى الإمام أبي عبد الله: الحسين بن الحسن المَرْوَزِيِّ (ت٢٤٦هـ)، في البر والصلة، تحقيق: د. محمد سعيد بخاري، الرياض، دار الوطن، ط١، (١٤١٩هـ) (ص١٣١)، رقم (٢٦٠). والإمام ابن أبي الدنيا، أبي بكر: عبد الله بن محمد (ت٢٨١هـ)، **في مكارم الأخلاق**، تحقيق: مجدي السيد إبراهيم، القاهرة، مكتبة القرآن (ص١٠٦)، رقم (٣٤٢). والإمام الخرائطي، أبي بكر: محمد بن جعفر (ت٣٢٧هـ) **في مكارم الأخلاق ومعاليها ومحمود طرائقها**، تقديم وتحقيق: أيمن عبد الجابر البحيري، القاهرة، دار الآفاق العربية، ط١، (١٤١٩هـ/١٩٩م) (ص٧٢)، رقم (١٧٢). والبيهقي، في الآداب، اعتنى به وعلق عليه: أبو عبد الله السعيد المندوه، بيروت، مؤسسة الكتب الثقافية، ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م (ص٢٨)، رقم (٦٦).

وعدَّه الإمام أبو نعيم: أحمد بن عبد الله الأصبهاني (ت٤٣٠هـ) من زينة الأولياء وخلق الأصفياء، في كتابه **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، بيروت، دار الكتب العلمية، (١٤٠٩هـ)، (١٠ج)، (٣/٢٣).

الكريم معهم، يصبر على اضطهادهم إيَّاه، يلجأ إلى الدُّعاء لهم بالهداية والتوفيق، والامتناع عن قتالهم رأساً أو فجأة قبل إنذارهم أو دفاعاً عن النَّفس[١]، مُطبِّقاً في ذلك كلِّه قولَ الله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝١٩٩﴾ [الأعراف: ١٩٩].

ومن المشاهد الدَّالَّة على ثقافة التعايُش في مكَّة والمدينة المستفادة مِن سيرة النبيِّ ﷺ مَعَ غير المسلمين الوقائع الآتية:

موقف النبيِّ ﷺ من قريش عموماً ومن أمِّ جميل حمَّالة الحطب خصوصاً، فقد كانت تضع له الشوك في طريقه، وترفع الفهر في وجهه تريد أن تهشمه به، وتولول قائلةً: «مُذَمَّماً أَبَيْنَا، وَدِينَهُ قَلَيْنَا، وَأَمْرَهُ عَصَيْنَا»[٢]. وكانت قريشٌ إنما تُسمِّي رسولَ الله ﷺ مُذَمَّماً، ثمَّ يَسُبُّونه! فكان رسول الله ﷺ يقول: «**أَلا تَعْجَبُونَ لِمَا يَصْرِفُ اللهُ عَنِّي مِنْ أَذَى قُرَيْشٍ؛ يَسُبُّونَ وَيَهْجُونَ مُذَمَّماً، وَأَنَا مُحَمَّدٌ**»[٣]؛ بل قبل فداء أسراهم ببذلهم العلمَ وتوسيع نطاق التفاعل الثقافي والتبادل المعرفي[٤].

وتجلَّت رحمتُه في المشركين يوم الطائف ومَلَكُ الجبال يستأذنه أن يُطبق عليهم الجبلين العظيمين، وهو يقول: «**بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ، لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً**»[٥]. ليسجِّل بذلك منتهى الرحمة والرأفة

---

(١) أبو يوسف: يعقوب بن إبراهيم الأنصاري (ت١٨٢هـ)، الخراج، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد ـ سعد حسن محمد، القاهرة، المكتبة الأزهرية للتراث (ص٢٠٩).

(٢) الحاكم، **المستدرك**، (٢/٣٩٣)، رقم (٣٣٧٦)، عن أسماء بنت أبي بكر. وصحَّحه، ووافقه الذهبيُّ.

(٣) ابن هشام، جمال الدين، أبو محمد: عبد الملك بن هشام (ت٢١٣هـ)، **السيرة النبوية**، تحقيق: مصطفى السقا ورفاقه، القاهرة، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط٢، ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م، (٢ج)، (١/٣٥٦).

(٤) ابن زنجويه، أبو أحمد: حميد بن مخلد (ت٢٥١هـ)، **الأموال**، تحقيق: د. شاكر ذيب فياض، السعودية، مركز فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، (٣ج)، (١/٣٠٩ ـ ٣١٠)، رقم (٤٧٢ ـ ٤٧٣)، عن عامر الشعبي.

(٥) متفق عليه، عن عائشة: البخاري، **الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه**، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط١، (١٤٢٢هـ)، =

والصدق في الدعوة والإخلاص لله تعالى. وهذه كلُّها ركائز رئيسة لمجتمع متنوِّع ومتعدِّد يريد أفرادُه أن يتعايشوا في ما بينهم.

وفي غزوة أحد يمسح الدم عن وجهه الشريف وهو يقول: «**رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ**»[1]. يعتذر لهم ألَّا يغضبَ اللهُ عليهم خشيةَ أن ينزل عليهم العذاب.

ثمَّ أثبتت الأحداثُ حُسْنَ تعايُشه مع اليهود في المدينة، انطلاقاً من كتابة الوثيقة التي تضمن حقوق الطرفين، مروراً بالتعامل معهم، وصولاً إلى دعوتهم إلى الحق والهدى والدعاء لهم.

رُوي أنَّ يَهُودِيّاً حَلَبَ لِلنَّبِيِّ ﷺ نَعْجَةً، فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ جَمِّلْهُ. فَاسْوَدَّ شَعْرُهُ حَتَّى صَارَ أَشَدَّ سَوَاداً مِنْ كَذَا وَكَذَا، وَعَاشَ نَحْواً مِنْ سَبْعِينَ سَنَةً لَمْ يَشِبْ**»[2]. وجَاءَ يَهُودِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: ادْعُ اللهَ لِي. فَقَالَ: «**كَثَّرَ اللهُ مَالَكَ، وَوَلَدَكَ، وَأَصَحَّ جِسْمَكَ، وَأَطَالَ عُمرَكَ**»[3].

وكان رسول الله ﷺ يزورهم ويتواصل معهم، ويعود مرضاهم، ويستفيد من مختلِف المناسبات الاجتماعية في العمل على إنقاذ النفس البشرية من الأوحال الدونية وتعلُّقها بالدُّنيا. فقد كَانَ غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ، فَمَرِضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ: «**أَسْلِمْ**». فَنَظَرَ إِلَى

= (٩ج)، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين والملائكة في السماء: آمين، فوافقت إحداهما الأخرى؛ غُفر له ما تقدَّم من ذنبه، (٤/ ١١٥)، رقم (٣٢٣١). أبو الحسين: مسلم بن الحجَّاج (ت٢٦١هـ)، **المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، (٥ج)، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبيُّ ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، (٣/ ١٤٢٠)، رقم (١٧٩٥).

(١) متفق عليه، عن عبد الله بن مسعود: البخاري، **الصحيح**، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، (٤/ ١٧٥)، رقم (٣٤٧٧). مسلم، **الصحيح**، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة أحد (٣/ ١٤١٧)، رقم (١٧٩٢).

(٢) ابن أبي شيبة، **المصنَّف** (٥/ ٢٥٥)، رقم (٢٥٨٢٤).

(٣) ابن أبي شيبة، **المصنَّف** (٥/ ٢٥٥)، رقم (٢٥٨٢٤).

أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ: أَطِعْ أَبَا القَاسِمِ ﷺ، فَأَسْلَمَ. فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: «**الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ**»[1].

وكان يستقبلهم في بيته ويستضيفهم على مائدته، ويقبل هديَّتهم. واقتطع لهم نصيباً من زكاة مال المسلمين، عُرف بسهم المؤلَّفة قلوبُهم.

وتظهر ثقافة التعايش متأصِّلةً في السيرة النبوية من خلال انتهاج النبيِّ ﷺ الوسطيةَ في ردِّ السَّلام عليهم، وعدم الاعتداء فيه كما هو شأنهم، ولم يبح للمسلمين تجاوز الحدِّ معهم، كما في تعليمه السَّيِّدةَ عائشةَ أمِّ المؤمنين أصول ردِّ السلام على اليهود حين أغلظوا عليه، ودعوا عليه بالموت، وأساؤوا له في بيته، فساورتها حميَّتُها في الدِّفاع عن رسول الله ﷺ زوجها. فقال: «**مَهْلاً، يَا عَائِشَةُ. إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ**»[2]. وقال: «**مَهْ يَا عَائِشَةُ، فَإِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْفُحْشَ وَالتَّفَحُّشَ**»[3].

وبالعموم، كان النبيُّ ﷺ بحضوره بينهم سبباً في أمنهم، ومانعاً من تنزُّل العذاب عليهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ٣٣﴾ [الأنفال: ٣٣].

وكان متواضعاً، ليِّنَ الجانب للرؤساء والملوك، يراسلهم ويدعوهم إلى الإسلام بكلِّ حرص ومسؤوليَّة، فقد راسل هِرَقْل، فجاء في مراسلته إيَّاه: «مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى»[4].

(١) البخاري، **الصحيح**، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات؛ هل يُصلَّى عليه؟ وهل يُعرَض على الصبي الإسلام؟ (٢/ ٩٤)، رقم (١٣٥٦)، عن أنس بن مالك.

(٢) البخاري، **الصحيح**، كتاب الأدب، باب الرفق في الأمر كلِّه (٨/ ١٢، ٦٠٢٤).

(٣) مسلم، **الصحيح**، كتاب السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يُرَدُّ عليهم، (٤/ ١٧٠٧)، رقم (٢١٦٥).

(٤) متفق عليه، عن أبي سفيان: البخاري، **الصحيح**، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ؟ (١/ ٨)، رقم (٧). مسلم، الصحيح، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هِرَقْلَ يدعوه إلى الإسلام (٣/ ١٣٩٣)، رقم (١٧٧٣).

ثانياً: عمل الخلفاء الراشدين:

سار خلفاءُ النبيِّ ﷺ في هذا المهيع الوطيد، وانتهجوا هذه القيم والمثل في ترسيخ دعائم التعايش والمحافظة على وشيجة المجتمع المتضامن، حتى في أوقات الحرب. فكانت وصيَّة خليفة النَّبيِّ ﷺ أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه إلى قادة جنده وعمَّاله على الأمصار: «**وَلا تَغْلُوا، وَلا تَغْدِرُوا، وَلا تَجْبُنُوا، وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ، وَلا تُغْرِقُنَّ نَخْلاً وَلا تُحَرِّقُنَّهَا، وَلا تَعْقِرُوا بَهِيمَةً، وَلا شَجَرَةً تُثْمِرُ، وَلا تَهْدِمُوا بَيْعَةً، وَلا تَقْتُلُوا الْوِلْدَانَ وَلا الشُّيُوخَ وَلا النِّسَاء، وَسَتَجِدُونَ أَقْوَاماً حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ فِي الصَّوَامِعِ فَدَعُوهُمْ وَمَا حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ لَهُ، وَسَتَجِدُونَ آخَرِينَ اتَّخَذَ الشَّيْطَانُ فِي رُؤوسِهِمْ أَفْحَاصاً، فَإِذَا وَجَدْتُمْ أُولَئِكَ فَاضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ إِنْ شَاءَ اللهُ**»[١].

وعلى هذه السياسة مشى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز فكتب إلى ولاته: «لا تَهْدِمُوا كَنِيسَةً وَلا بَيْعَةً وَلا بَيْتَ نَارٍ...»[٢].

وكتب أميرُ المؤمنين عمرُ بن الخطَّاب رضي الله عنه العهدة العمرية لأهل فلسطين، والتي نصَّت على أنَّ أهل إيلياء لا يُكرَهون على دينهم، ولا يضام أحدٌ منهم، أي: إنَّ لهم حريَّةَ التديُّن. وتكرر فيها ذِكْرُ الحفاظ على الكنائس والصلبان أكثر من مرة، والتأكيد بشكل مستقل على عدم إكرههم في الدين أو مضارتهم فيه[٣].

وكان أنْ مرَّ يوماً بشيخ مِن أهل الذِّمَّة يسأل على أبواب النَّاس! فقال: «**مَا أَنْصَفْنَاكَ إِنْ كُنَّا أَخَذْنَا مِنْكَ الجِزْيَةَ فِي شَبِيبَتِكَ، ثُمَّ ضَيَّعْنَاكَ فِي كِبَرِكَ**». ثمَّ أجرى عليه مِن بيت المال ما يُصلِحه.

(١) البيهقي، **السنن الكبرى**، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٣، (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م) (١٠ج)، **جماع أبواب السير**، باب من اختار الكفَّ عن القطع والتحريق... (٩/ ١٤٥)، رقم (١٨١٢٥)، عن سعيد بن المسيب.

(٢) أبو عبيد: القاسم بن سلَّام الهروي (ت٢٢٤هـ)، **الأموال**، تحقيق: خليل محمد هراس، بيروت، دار الفكر (ص١٢٣)، رقم (٢٦٢). ابن زنجويه، الأموال، (١/ ٢٦٨)، رقم (٤٠٠).

(٣) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، بيروت، دار التراث، ط٢، (١٣٨٧هـ) (٣/ ٦٠٩).

وسار أيضاً في ضوء هذه السياسة في تحميل الدَّولة كفالةَ العاجزين المحتاجين مِن أهل الذِّمَّة أميرُ المؤمنين عمرُ بن عبد العزيز، فقد جاء في كتابه إلى واليه على البصرة قولُه: «وانْظُرْ مَنْ قِبَلَكَ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ، قَدْ كَبِرَتْ سِنُّهُ، وضَعُفَتْ قُوَّتُهُ، ووَلَّتْ عَنْهُ المَكَاسِبُ. فَأَجْرِ عَلَيْهِ مِنْ بَيْتِ مَالِ المُسْلِمِينَ مَا يُصْلِحُهُ»[١].

ومن التعايش تبادل الخبرات وتناقل المهارات والاستفادة من خير العادات، كما حصل مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب حين أنشأ الديوان ـ وهو أشبه بوزارة المال بمفهومنا المعاصر ـ على غرار ما كان متعارفاً عليه في بلاد الشام. فسهَّل به إيصالَ الرواتب والمستحقات إلى أهلها[٢].

المطلب الثَّالث

فتاوى الأئمَّة وعرف الأمَّة

أوَّلاً: فتاوى الأئمَّة في التعايُش:

تأتي فتاوى الأئمَّة ليأتمَّ به الجمهورُ. وفي هذا السياق سنلحظ كيف توافقت توجُّهات العلماء في ترسيخ ثقافة التعايش بين المجتمع الواحد، من خلال الشُّعور بغير المسلم بجامع الإنسانيَّة المتوافرة لدى البشريَّة، في سبيل سير المجتمع في ركب الحضارة المدنيَّة التي تجمع ولا تفرِّق، وتبني ولا تهدم، لا على حساب الدِّين ولا تقفز فوق الصالح العام.

مِن ذلك فتوى السَّادة الأحناف أنْ يُؤدِّي المسلمُ زكاةَ الفطر عن مملوكه غير المسلم؛ لأنَّ الوجوبَ على المولى عن عبده فتُعتبَر أهليَّةُ المولى[٣].

(١) أبو عبيد، **الأموال** (ص٥٦ ـ ٥٧)، رقم (١١٩). ابن زنجويه، **الأموال** (١/ ١٦٩)، رقم (١٧٩).

(٢) أبو يوسف، **الخراج** (ص٥٦)، ابن زنجويه، **الأموال**، (٢/ ٥٠٤)، رقم (٨٠٢).

(٣) السرخسي، شمس الأئمة، محمد بن أحمد (٤٨٣هـ)، **المبسوط**، بيروت، دار المعرفة، (١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م) (٣٠ج)، (٣/ ١٠٣).

وبجواز إعطائها أيضاً لغير المسلم بتفاصيل مبثوثة في مظانِّها[١]؛ لأنَّ المقصودَ سدُّ خَلَّةِ المحتاج، ودفعَ حاجته بفعلٍ هو قُربةٌ مِن المؤدِّي[٢].

وكان من سياسة الولاة المبنيَّة على فتوى الفقهاء، ما حدَّث به أبو إسحاق قال: «كَانَتِ الصَّدَقَةُ تُجْمَعُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِ عَبْدِ اللهِ، إِلَى عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ الأَوْدِيِّ، وَمُرَّةِ الْخَيْرِ، وَعَمْرِو ابْنِ شُرَحْبِيلَ. فَكَانُوا يَقْسِمُونَهَا ثَلاثَةَ أَثْلاثٍ: ثُلُثاً لِفُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ، وَثُلُثاً لِلأَعْرَابِ، وَثُلُثاً لِلرُّهْبَانِ»[٣]. وحدَّث أيضاً عن أبي ميسرةَ عمرو بن شُرحبيل «أَنَّهُ كَانَ يُعْطِي الرُّهْبَانَ مِنَ الزَّكَاةِ»[٤]؛ أي: صدقة الفطر.

وبلغ بأهل العِلم أن خصُّوا في مصنَّفاتهم الماليَّة ودواوينهم الحديثية أبواباً بحثوا فيها هذا الجانب الإنسانيَّ مِنَ التعامُل الرشيد[٥]. وممَّا يُذكَر في هذا السِّياق سؤالُ عبد الله بن مروان لمجاهد: إنَّ لِي قَرَابَةً مُشْرِكاً، وَلِي عَلَيْهِ دَيْنٌ، أَفَأَتْرُكُهُ لَهُ؟ قَالَ: «نَعَمْ، وَصِلْهُ»[٦]. فليت شِعري، ممَّ العجبُ؟! أمِن إعفائه مِنَ الدَّينِ؟ أمْ مِنْ إعطائه ما يسدُّ به حاجتَه ويكون له عونٌ على حياته؟

(١) الكاساني، علاء الدين، أبو بكر بن مسعود (ت٥٨٧هـ)، **بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع**، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م (٧)، (٢/ ٧٤).

(٢) السرخسي، **المبسوط**، (٣/ ١١١).

(٣) ابن زنجويه، **الأموال**، (٣/ ١٢٧٦)، رقم (٢٤٧٤).

(٤) أبو عبيد، الأموال (ص٧١٩)، رقم (١٩٩٧). ابن أبي شيبة، **المصنف** (٢/ ٤٠١)، رقم (١٠٤٠٣). ابن زنجويه، **الأموال** (٣/ ١٢٧)، رقم (٢٤٧٥). وينظر: الألباني، تمام المنة في التعليق على فقه السُّنَّة، دار الراية، ط٥ (ص٣٨٩).

(٥) ينظر: أبو عُبيد، **كتاب الأموال**، باب إعطاء أهل الذِّمَّة من الصدقة، وما يجزي من ذلك مما لا يجزي، وساق تحته اثني عشر أثرًا بهذا الخصوص (ص٧٢٧ ـ ٧٢٩)، رقم (١٩٨٦ - ١٩٩٧). وابن زنجويه، **الأموال**، باب الرخصة في إعطاء أهل الذِّمَّة من زكاة الفطر (٣/ ١٢٧٦). والبيهقي، **السنن الكبرى**، باب صدقة النافلة على المشرك وعلى من لا يحمد فعله (٤/ ٣٢١).

(٦) أبو عبيد، **الأموال** (ص٧٢٩)، رقم (١٩٩٥). ابن أبي الدنيا، **مكارم الأخلاق** (ص٨٣)، رقم (٢٤٨).

كذلك إجزاء الرَّقبة في أن تكون غيرَ مؤمنةٍ في كفَّارة الظِّهار، واليمين، والإفطار[١].

وفي إبقاء عقد الزوجية قائماً بين الكتابيِّ وزوجه إذا أسلمت ما لم يضارَّها في دينها، حفاظاً على الأسرة، ورجاء أن يسلم. ولا يخفى ما لهذا الحكم من دور إيجابي في التعريف بالإسلام عمليّاً وتشريعيّاً، ومناقضة اتِّهامه بالعنصريَّة[٢].

إلى غير ذلك من الفتاوى والأحكام، حتى نتجت قواعد عملية تضبط تصرفات المسلمين وتحكم أفعالهم تُجاه غيرهم، على أساس من التعاون على المتفق عليه وما يخدم الأرض والعرض والمجتمع والبلد والفرد والدولة.

ثانياً: عُرْف الأمَّة في التعايُش:

«الإسلام لا يفرِّق بين الأديان في المعاملة، والأخص في الإحسان، والحق في بيت مال المسلمين. والتفسير النَّفسيُّ لكلٍّ ذلك هو أنَّ الإسلام يعامل الغرائز البشريَّة بميزان العقل والحكمة»[٣]. لذلك امتدح القرآنُ الكريم تعامُلَ المسلمين معَ غيرهم في غير ما مناسبة تشدُّ من أزر المجتمع وتوطِّد لحياة مستقبلية ذات عَلاقات اجتماعية مبنية على هذه السوابق الأخلاقية، من ذلك ما ورد تعليقاً على قول الله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨﴾ [الإنسان: ٨]، قال ابن جُريج: «لَمْ يَكُنِ الأَسِيرُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا مِنَ الْمُشْرِكِينَ»[٤].

وهو ما يعكس روح التَّضامُن والتكافُل التي كانت قائمةً في المجتمع

(١) السرخسي، **المبسوط** (٧/ ٢). الكاساني، **بدائع الصنائع** (٥/ ١١٠).

(٢) القرضاوي، د. يوسف، إسلام المرأة دون زوجها: هل يفرق بينهما؟ بحث منشور في **المجلة العلمية للمجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث** (ص٤٢٣ ـ ٤٤٣)، (ع٢)، كانون الثاني (٢٠٠٣م)، ذو القعدة (١٤٢٣هـ) (ص٤٣٥، ٤٣٩ ـ ٤٤٠).

(٣) الهراوي، د. حسين، الهراوي، المستشرقون والإسلام، أثر التوحيد الاجتماعي، بحث منشور في **مجلة المنار**، المحرم، (١٣٥٤هـ)، مارس (١٩٣٦م) (٣٥/ ٣٠٢).

(٤) أبو عبيد، **الأموال** (ص٧٢٩)، رقم (١٩٩٦).

الأوَّل بين أبنائه. وورودُها بصيغة الإخبار يتضمَّن معنى الإنشاء الطَّلبيِّ، في إرشاد المسلمين إلى الإبقاء على هذه الرُّوح العالية والأخلاق السَّامية من حُسْن التصرُّف وسلامة الخبيئة والتكامُل في التعايش، الآخذ بأعناق المواطنين إلى ما يُحمَدون عليه مِن ربِّ البريَّة سبحانه. وهي علاقاتٌ إنسانيَّة تتَّصف بالعَفْويَّة وعدم التكلُّف، والصِّدق وعدم التظاهر، مبنيَّة على السَّلاسة والانسيابيَّة إلى أقصى مدى. إنَّها تُشيِّدُ أشبهَ ما يكون بجسور من التواصل الأخلاقيِّ والاجتماعيِّ بين الإنسان وأخيه الذي هو «إمَّا أخٌ لك في الدِّين، أو نظيرٌ لك في الخَلْق»، على حدِّ تعبير أمير المؤمنين عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه[1].

وقد حثَّ النبيُّ ﷺ على مخالطة النَّاس ومعايشتهم، والصبر على ما يبدر منهم، فقال: «**الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ، وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ أَفْضَلُ مِنَ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ**»[2].

بناءً عليه، اصطلحت الأمة على التعايش بين المِلَل والنِّحَل، رَغم ما شهدته عبر تاريخها الطَّويل من فتن داخليَّة وحروب دامية، بيدَ أنَّ القارئ لها بعُمق النَّظرَة التحليلية في خواصِّها ودوافعها، يلحظ أنَّ ثمة أياديَ سوداء خفيَّة كانت تعمل بليل لإذكاء الفتنة بين المسلمين أنفسهم، أو بينهم وبين غيرهم. بالإضافة إلى العوامل السياسية البحتة التي كانت تطال الأطراف كلَّها دون استثناء. وحيث إننا لسنا في صدد البحث عن هذه الأسباب فإننا نكتفي بهذه الإشارة العابرة. لنؤكد توافر ثقافة التعايش لدى المسلمين من خلال تعارف المجتمع لهذا السُّلوك الإنسانيِّ وممارسته عمليّاً عبر بناء الصداقات، والزيارات، والتجارات، وإلَّا لانقطع المعاش وتعطَّل العمران.

---

(١) ابن حمدون، بهاء الدين، أبو المعالي: محمد بن الحسن البغدادي (ت٥٦٢هـ)، **التذكرة الحمدونية**، بيروت، دار صادر، ط١، (١٤١٧هـ) (١٠ج) (١/ ٣١٦).

(٢) الترمذي، **السنن**، أبواب صفة القيامة والرَّقائق والورع (٤/ ٦٦٢)، رقم (٢٥٠٧). ابن ماجه، أبو عبد الله: محمد بن يزيد القزويني (ت٢٧٣هـ)، **السنن**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي (٢ج)، كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء (٢/ ١٣٣٨)، رقم (٤٠٣٢)، عن ابن عمر. وينظر: الألباني، **الصحيحة** (٢/ ٦١٤)، رقم (٩٣٩).

وقد عرف التعايشُ مجالاتٍ واسعةً على صعيد المجاورة، فعاشوا على المودة والعطاء وحسن الجوار، كما تعايش الرفقاء والأصحاب في غربتهم كما في إقامتهم، وتعايشت المجتمعات والدول على المسالمة والمهادنة باحترام وقبول وتقدير للنوع الإنساني. ويعجبني كثيراً في هذا الصدد كلامُ فقيه النَّفْس وطبيبِها أبي حامد الغزالي أثناء حديثه عن أدب الجوار، فقال: «الجوار يقضي حَقّاً وَرَاءَ مَا تَقْتَضِيهِ أُخُوَّةُ الإِسْلامِ؛ فَيَسْتَحِقُّ الجَارُ المُسْلِمُ مَا يَسْتَحِقُّه كُلُّ مُسْلِمٍ وَزِيَادَةٌ». ويقول: «لَيْسَ حَقُّ الْجِوَارِ كَفَّ الأَذَى فقط؛ بل احتمال الأذى... ولا يكفي احتمال الأذى بل لا بد من الرفق وإسداء الخير والمعروف»[1].

وإذا استقرينا واقعَ الجيران وما لهم من حقوق؛ تبيَّنَ أنَّ الْجِيرَانَ ثلاثَةٌ: فَجَارٌ لَهُ ثَلاثَةُ حُقُوقٍ، وَجَارٌ لَهُ حَقَّانِ، وَجَارٌ لَهُ حَقٌّ. فَجَارُكَ ذُو الثَّلاثَةِ الْحُقُوقِ: جَارُكَ الْمُسْلِمُ الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ قَرَابَةٌ؛ فَلِلإِسْلامِ حَقٌّ، وَلِلْقَرَابَةِ حَقٌّ، وَلِلْجِوَارِ حَقٌّ. وَجَارُكَ ذُو الْحَقَّيْنِ: جَارُكَ الْمُسْلِمُ؛ فَلِلإِسْلامِ حَقٌّ، وَلِلْجِوَارِ حَقٌّ. وَجَارُكَ ذُو الْحَقِّ: جَارُكَ الَّذِي لَيْسَ عَلَى دِينِكَ؛ فَلِلْجِوَارِ حَقٌّ[2].

فانظر كيف ثبت لغير المسلم حقٌّ بمجرَّد الجوار، وقد قال رسول الله ﷺ: «**وأَحْسِنْ مُجَاوَرَةَ مَنْ جَاوَرَكَ؛ تَكُنْ مُسْلِماً**»[3].

---

(١) الغزالي، أبو حامد: محمد بن محمد (ت٥٠٥هـ)، **إحياء علوم الدين**، بيروت، دار المعرفة (٤ج)، (٢/ ٢١٣).

(٢) أصله حديث ضعيف، ينظر: الألباني، **سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيِّئ في الأمة**، الرياض، مكتبة المعارف، ط١، (١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م) (١٤ج)، (٧/ ٤٨٨)، رقم (٣٤٩٣).

(٣) الترمذي، **السنن**، أبواب الزهد، باب من اتقى المحارم فهو أعبد الناس (٤/ ٥٥١)، رقم (٢٣٠٥). ابن ماجه، السنن، كتاب الزهد، باب الورع والتقوى (٢/ ١٤١٠)، رقم (٤٢١٧)، عن أبي هريرة. وينظر: الألباني، **الصحيحة** (٢/ ٦٠١)، رقم (٩٣٠).

المبحث الثَّالث

تجلّيات التعايُش وتطبيقاتُه المعاصرة

التعايش السِّلمي بين البشر هو حاجةٌ لا غنًى عنها لاستقرار الحياة وأمنها. والمجتمعاتُ الإنسانيَّةُ اليومَ هي أكثرُ تنوُّعاً مِن أيِّ وقتٍ مضى. والإسلامُ لم يفرق في التعامل الإنساني بين المسلم وغير المسلم، ولا بين الرجل والمرأة، ولا بين الحرِّ والعبد، ولا بين الحاكم والمحكوم؛ بل تعاليمه ونظمه سارت على حد سواء. وما يصحُّ أنْ يكون مِن وجوه التعايش بين المسلمين؛ يصحُّ أنْ يكون بين المسلمين وغير المسلمين، لقيامه على منظومة الثوابت المجتمعية والقيم الأخلاقية، التي من شأنها أنْ تمكِّنهم من المشاركة الفاعلة والدَّائمة في خدمة المجتمع، والمحافظة على أمنه وسلمه، وتطويره وازدهاره، وتقدُّمه العلمي والمعرفي، ونموِّه الاقتصادي والتجاري.

وبالتالي ينتهض التعايش كثقافة مجتمعية ونمط حياة وسلوك إنساني من خلال حُسْن الخُلُق، والصَّفح عن العثرات، وترك الحسد، وإظهار الفرح والبشاشة، وسلامة القلب وإسداء النصيحة، وترك الأذى، ومجانبة الحقد، ومعرفة أسماء المخاطبين والمناداة بها، وحفظ العهد، والإكرام، وحفظ الأسرار، وقَبول المَشورة، والتخلُّق بمكارم الأخلاق ومحاسنها، والصحبة والوفاء، وترك المداهنة، واحتمال الأذى سيَّما من الجار، ومجانبة الخصال الذميمة، والعفو عن الهفوات، وطلاقة الوجه، والمشاركة في السرَّاء والضراء، وترك المنِّ، والإعراض عن الواشي النمَّام، والوفاء في الحياة والوفاة، وستر العورات، والتودُّد والصفح، وحِفْظ العهد، وترك الوقيعة في النفس والأعراض، وقَبول الاعتذار، وقضاء الحوائج، ومزاورتهم وصلتهم وتفقُّدهم، ومواساتهم[١].

(١) ينظر: الغزي، بدر الدين، أبو البركات: محمد بن محمد العامري (ت٩٨٤هـ)، **آداب العشرة وذكر الصحبة والأخوة**، تحقيق: د. عمر موسى باشا، دمشق، مطبوعات مجمع اللغة العربية، (١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م).

فصحَّ القول: إنَّ مجالاتِ التعايُش ومظاهرَه عديدةٌ وكثيرة، وتتداخل في ما بينها بوسائط متعدِّدة لروابط بينيَّة تأخذ بأعناق بعضها، وتكون سبباً في الأخرى، أو وجهاً ثانياً لها، أو دافعاً لها. والمسلم حاضرٌ فيها كلِّها وشاهدٌ عليها؛ بل مشارك في إيجادها وتجلِّيها، غيرُ مفرِّط فيها، ولا مبعثر لثمارها ونتائجها، إنْ على مستوى الفرد أو المجتمع فضلاً عن الوطن.

فلا يُعرَف في الإسلام وجود مانع يحظر التعايش مع مختلف الأجناس والأعراق ومتعددي المذاهب والطوائف والأديان. لأننا نقرأ في الذكر الحكيم الإرشاد الإلٰهيَّ العظيم في التباحُث مع غير المسلمين، والاستفادة من هذه اللقاءات في عرض الإسلام عليهم، وتبديد المخاوف التي لديهم، والإجابة عن تساؤلاتهم وتشكيكاتهم. فيقول الله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل: ١٢٥].

واليومَ نشهد قفزةً نوعيَّةً في مدِّ شبكات علمية بين مختلف الشرائح، وإقامة مؤتمرات وندوات ومحاضرات في تعريف الناس بعضهم ببعض على الصعيد الديني للتخفيف من حدَّة الاحتقان، ونبذ ثقافة الكراهية والاقتتال.

وإنَّ الحضور الإسلامي ـ المسيحي على سبيل المثال واضح في المدن والقرى المسلمة والمسيحية على السواء، وإن كان بنسب متفاوتة في بعض المناطق اللبنانية. كما أنَّ التنوُّع الإسلامي ـ الإسلامي هو الآخر تصدح فيه مآذنُه بصيحات التكبير والتهليل دعوةً إلى خير العمل.

ولا تزال الحواضن التربوية والدور التعليمية والمسارح الإرشادية مشرَّعةً أبوابَها لكلِّ طالب علم راغب ومجدٍّ على التحصيل مثابر. وما زال المسلمون ـ كما غيرهم ـ يبحثون عن أفضل المدارس وأعرق الجامعات ليسجِّلوا فيها أبناءهم، كي يعودوا بعد سنوات من التحصيل وقد ارتشفوا من معين هذه المؤسسات التربوية حاصلين على أرقى الشهادات التعليمية.

وكم من أستاذ أو معلم فاضل قد زرع مفهوماً قِيَميّاً في نفس إنسان لا يزال يجد من أثره في تربيته وسلوكه أو انتمائه إلى أرضه وأمَّته! وهكذا نتلمَّس

التعايش السلمي الحضاري بين المعلم والأستاذ وبين التلميذ والطالب، وبين المدارس والجامعات والأهل وأولياء الأمور. ثمَّ من خلال المنابر الإعلامية التي لها الدور الفعَّال في التدريب على هذه الثقافة. وبشكل عام، إنَّ الاهتمام بالمجال التعليمي يقود بكلٍّ ثقة إلى انتشار التعايش وترسيخه كمفهوم وثقافة حياة وقيمة مجتمعية في صفوف المجتمع.

وما فتئ المسلم يبني مع غيره صداقات وعلاقات، ينشأ عنها زيارات ولقاءات، يتبادلون فيها أطراف الحديث والفكاهة والمزاح، ويتقدَّمون من بعضهم بالتهاني والتبريكات في المناسبات السعيدة والنَّجاحات، أو بالمواساة في الأحزان والابتلاءات.

وإننا نشاهد اندماج المسلم مع غيره من زملائه وأصحابه ورفقاء دربه في العمل والشركات والمؤسسات والنوادي الرياضية والفرق الكشفية، وتوفير الصحة والعناية الطبية والتمريضية لمن يحتاجها. أيضاً كثيراً ما يلتقي المسلم مع غيره من أبناء الحي الواحد أو العمارة الواحدة على فض نزاع أو حل خلاف أو بذل معونة أو القضاء على مشكلة.

وبالنظر إلى سوق العمل والاستهلاك اليومي ووسائل النقل والمواصلات ومواقع التواصل الاجتماعي... نرى بناء شبكات من الصداقات والمعارف وإفادة الكل من الكل دون أن يكون الدين حاجزاً أو مانعاً أو مثبطاً من هذه العزيمة الإنسانية والحياة المجتمعية.

ونلحظ التعايش من خلال انتشار المحلات التجارية المتنوعة في الأسواق المحلية والعالمية، والتوظيف فيها، وحركة البيع والشراء، ومراعاة إتقان آداب المهنة ورعاية شؤونها التي هي سبب وجيه في كسب الزبون بغضِّ النَّظر عن ديانته أو انتمائه. ذلك كله ينشِّط الدورة الاقتصادية، وينمي الحركة المالية التي تنعش البلد وتؤمِّن فرص عمل وتوفِّر السُّوق الاستهلاكية لضمان استمرارية الحياة الاقتصادية.

وإنَّ انخراط المسلم في العمل السياسي، وتشكيله الأحزاب السياسية ومشاركته في الاستحقاقات الانتخابية، ووصوله إلى المجلس الاختياري أو

البلدي أو القبة البرلمانية، ثم تطويع ذلك كله في خدمة شعبه وأهل بلده دون تفرقة أو مصلحة، لهو أدلُّ دليل على انبعاث روح التعايش ببين أبناء الوطن الواحد من خلال المجال السياسي والحزبي والاجتماعي والخيري.

ويُتوِّج ما سبق بمشاركةِ المسلمِ غيرَه في الانخراط بالسِّلك العسكريِّ والقوى الأمنية، لخدمة علم بلاده، وتوفير الأمن والحماية والسلامة لأمَّته وشعبه وأبناء وطنه، بمنتهى الشعور بالمسؤولية والانتماء، وهو يدافع عن أرضه وعرضه وكرامته ويقاوم المحتل الغاصب ويدفع العدو الغاشم. كذلك حين ينزل إلى الشوارع والأسواق سيَّما في مواسم الأعياد والمناسبات الكبرى التي يعوزها الأمن لضمان سلامة الناس.

الخاتمة

في المُحصِّلة، لقد بات واضحاً أنَّ ثقافة التعايش لم تكن في يوم من الأيام نتاجَ ضعفٍ أو خور، ولا سببَ هزيمةٍ أو انكسار، ولا بدافع القهر والاضطهاد! بل التعايش ـ بكلٍّ ما يحمله من مفهوم ومعنى، وبكل ما يدعو إليه من اتِّحاد وقوة ـ مؤشِّرٌ على ثقافة الإنسان، ومِقياس يقيس به المرءُ مدى قربه أو بعده من الفطرة المركوزة في إنسانيته، ودليلٌ على تجلِّيات صوت الحقِّ والعدالة والوسطيَّة في المجتمع.

وهو إيمان صادق بالإنسان، ووفاء متجذِّر تُجاه الآخر الذي يتشارك معه الحياة، بسلم وسلام وأمن وأمان وطمأنينة واحترام، وبدافعٍ من الحاجة إليه، ثم كمُسبِّب وموجب له. ولا أخال عاقلاً قد فقه جوهرَ التعايش وأبعاده ومراميه إلَّا وهو متمسِّك به ويدعو إليه.

والتعايش مفردة ركينة من مجموع المنظومة الإسلامية. قائم على التعارف والاعتراف وقَبول الآخر وحرية الاختيار. يدعو إلى المعاملة الإنسانية الحسنة، ووجوب كف اليد واللسان. وله جذورٌ ونماذج من التطبيقات العَمليَّة زَمَنَ النَّبيِّ ﷺ وعصرَ الخلافة الراشدة حتى تاريخه إلى قيام الساعة. وهو قوَّةٌ وازدهار، ونموٌّ وإنماء، وتمدُّن وحضارة، وثقافة وانتماء.

ولا يجوز محاكمة الإسلام استناداً إلى بعض الممارسات الخاطئة التي هي حالات شاذَّة، وغالبيتها تنفِّذ أهدافاً أجنبيَّة لتحقيق مصالح اقتصادية وسياسية من خارج المنظومة الإسلامية. وأنَّ ذلك يتأكَّد بالنظر إلى تاريخ الإسلام الممتد لأكثر من أربعة عشر قرناً حيث لم يظهر مثل تيك الأعمال ولا عرف مفهوم الإرهاب كمفردة من مفرداته؛ بل ظهر هذا المفهوم على أعقاب الحرب الأفغانية ـ السوفيتية. وهؤلاء النفر القليل إنما ربّوا على شاشات التلفاز، وهنا تقع مسؤولية كبرى على عاتق وسائل الإعلام ومواقع التواصل الاجتماعي لما لها من يد طولى في إظهارها والتكتم والتعتيم على الحالة الصحية الطبيعية.

